

1937 : سنة الجوع

صالح شكاك

ثانوية عبد الله الشفشاوني، تمارة

مقدمة :

شكلت مجاعة 1937، انتكاسة عميقة للمجتمع المغربي، في إطار سلسلة من الأزمات التي تعاقبت عليه خلال فترة الحماية. وإذا كان تاريخ المغرب لم يخل من مثل هذه الانتكاسات بسبب تأثير التقلبات المناخية وضعف وسائل الإنتاج، فإن ظهورها من جديد في عهد احتلال رأسمالي متطور يطرح أكثر من تساؤل.

مجاعة 1937 في مسار الأزمات :

لم تعد التقلبات المناخية تحل المكانة نفسها التي كانت عليها قبل التدخل الفرنسي في المغرب في تحديد أولويات الأسباب. صحيح إن المغرب عرف منذ توقيع معاهدة الحماية سنة 1912 تعاقب سنوات جافة وأخرى مطيرة، الشيء الذي انعكس سلبا على احتياطات الفلاحين ووضعيتهم الاجتماعية. إلا أن ذلك لم يكن كافيا لتفسير ظاهرة الجوع والبؤس. فقد عرفت هذه المرحلة التاريخية تدخل عوامل جديدة، ناتجة عن الاستعمار الفرنسي وما صاحبه من غزور رأسمالي لبنية ما قبل رأسمالية.

- أدى الرأسمال الأجنبي المقحم إلى انتشار استعمالات النقد على نطاق واسع، فأصبح المنتج الفلاحي تحت رحمة تقلبات السوق وتوجهات كبار التجار. ففي موسم 1925-1926 باع الفلاحون المغاربة معظم إنتاجهم من الحبوب، بسعر تراوح ما بين 60 ف و 90 ف للقنطار. شهورا قليلة بعد ذلك أعيد بيع هذه الحبوب للفلاحين أنفسهم بسعر وصل

إلى 240 ف للقطار الواحد¹. ورغم دق ناقوس الخطر، ظلت إدارة الحماية أسيرة توجهات القوى المالية. وبذلك يكون هذا الوضع الجديد قد ساهم بشكل كبير في أزمة 1926-1927 حيث مات من الجوع حوالي 50.000 نسمة.

- أصبح الفلاح المغربي تحت رحمة مؤسسات جديدة كشركات الاحتياط الأهلي (S.P.I) والقرض الفلاحي.... وملزما بأداء تبعاتها، إضافة إلى الإكراهات الضريبية الجديدة كضريبة الترتيب التي كانت تمتص جزءا ليس بالهين من حصيلة الموسم الفلاحي. فشركات الاحتياط الأهلي وزعت خلال عشرين سنة ما مقداره 311 مليون فرنك من السلفات. وانتقل حجم سلفاتها السنوية من ستة وأربعين ألف فرنك سنة 1917 إلى خمسة وثلاثين مليون فرنك سنة 1936 موزعة من قبل اثنتين وخمسين شركة احتياط². وهكذا لم يعد الفلاح قادرا على توفير مخزون يقيه آفة الجوع أسوء التغذية. ففي الجنوب، مثلا، اختفت ظاهرة المخازن (إغرم- أكادير) التي كانت تعرفها المنطقة³.

- سيطر المعمرون والشركات الفلاحية على أخصب الأراضي. وتم ذلك في معظم الأحيان على حساب أراضي الجموع وما كانت تمثلها بالنسبة للفلاحين من متنفس استراتيجي يوفر للقطعان مجالا حيويا للرعي. وهكذا توزعت هذه الأراضي سنة 1932 كالتالي⁴.

عدد استغلايات الاستعمار الرسمي	المساحة هـ	عدد استغلايات الاستعمار الخاص	المساحة هـ
1.625	259.657	2.608	565.788

- تأثرت فرنسا كثيرا بالأزمة الاقتصادية لسنة 1929، أما المغرب، فشكل بالنسبة للاقتصاد الفرنسي جزءا من حل في إطار الحماية

¹ Farage (yves), Quand la famine ravage les population, Maghreb, n° 7, janvier 1933, p.2..

² Vingt ans de prévoyance indigène au Maroc. Direction des affaires politiques, imprimerie officielle, Rabat 1937, p.6

³ Gallissot (rené), Le patronat Européen au Maroc, Action Sociale, action politique (1931-1942), centre universitaire de la recherche scientifique du Maroc, Rabat, 1964, p. 154.

⁴ B.O, n° 1107, 12 Janvier 1934, p.34.

المفروضة على المستعمرات. لذلك عانى بشكل خطير. ففي البوادي بلغ البؤس أقصاه. وتذمر الحرفيون وأصبح الكثير من التجار يعانون صعوبات مالية كبيرة... وكان من نتائج ذلك أن تعذر أداء الضرائب بتراجع المداخيل والأرباح وعجز الرأسمال⁵. إلا أن هذه الأزمة لم تشكل في نهاية المطاف إلا أزمة ستليها أزمات أخرى مرتبطة بطبيعة النظام الرأسمالي كتلك التي عرفها المغرب خلال الحرب العالمية الثانية، حيث باشرت إدارة الحماية كافة أشكال الاستنزاف في حق المغاربة وثرواتهم.

مظاهر الجوع والبؤس :

تراجعت كميات الأمطار بشكل ملحوظ في المناطق الجنوبية والشرقية منذ سنة 1935. ومنذ فاتح شتبر 1936 لم تتعد نسب التساقطات 60 % بوجدة والجديدة، 57 % بشيشاوة، 46 % بالصويرة، 53 % بمراكش.... في حين كانت النسب أقل بكثير بأقصى الجنوب بحيث سجلت 20 ملم بأرفود، 3 ملم بطاطا. أما في أعالي الجبال فلم تتجاوز كمية الثلوج 15 سنتم بأزيلال مثلا. وانعدمت التساقطات خلال شهر فبراير، وكانت كمياتها قليلة جدا خلال شهر مارس، بحيث لم تتجاوز 25 % من الكميات العادية بالمغرب الشرقي و20 % بجهة مراكش وسوس و12 % بالصويرة وانعدمت بمنطقة درعة⁶. ولم تنحصر ظاهرة الجفاف في تراجع التساقطات فقط، بل تجلت كذلك في ارتفاع غير عاد لدرجات الحرارة بسبب هبوب رياح الشرقي الحارة والجافة.

وكان من نتائج هذا النقص الخطير في الأمطار أن تدمرت كليا المساحات المزروعة بالمغرب الشرقي وجهة مراكش بما في ذلك سوس ودرعة.... وضاعت مساحات مهمة بالقسم الجنوبي من الشاوية إضافة إلى الصويرة وآسفي... وكان من نتائج هذه الوضعية أن بلغ عدد الذين لم يكونوا يتوفرون على ما يقتاتون به حوالي 500.000 نسمة. في حين قدر

⁵ Jean-longvet (Robert), Maroc 1934, Maghreb, n° 18-19 Janvier – février 1934, p.14.

⁶ Mesures prises pour lutter contre la famine et la maladie, note présenté au conseil du Gouvernement 25 juin 1937, imprimerie officielle, Rabat, 20 juin 1937, p. 1-2.

عند الذين كانوا يتوفرون على غذاء غير كاف بحوالي 900.000 نسمة. وهكذا كان سكان تافلاالت وورزازات ودرعة مهددون بالموت الحقيقي⁷. ودلت التجارب السابقة، وخاصة خلال المواسم : 1913-1914 و1920-1921 و1927-1928 على خطورة وباء التيفوس المرافق للجفاف، فمنذ يناير 1937، بدأت حالات التيفوس في تزايد مستمر.

وأثرت هذه الأزمة الاقتصادية على كافة القطاعات ومعظم الشرائح الاجتماعية بسبب انهيار الأجور وارتفاع أسعار المواد الاستراتيجية. ففي الوسط العمالي ارتفعت الميزانية المخصصة للتغذية لتتراوح ما بين 46,7 % و 76,4 % حسب الدخل وعدد أفراد الأسرة..... إضافة إلى ندرة المواد المعروضة وارتفاع أسعارها بشكل لافت للانتباه. بحيث ارتفعت أسعار دقيق القمح بنسبة 62 % والشعير بنسبة 70 % والزيت بنسبة 100⁸. وأبانت نسب مؤشرات الأسعار المقارنة عن زيادة مهولة فيما بين ماي 1936 وأكتوبر 1937، رغم اختلافها عموما من جهة لأخرى، ويقدم الجدول التالي فكرة عن هذه الزيادة في ثلاث جهات⁹.

	ماي 1936	28 يونيو	31 أكتوبر 1937
أكادير	100	131	144
فاس	100	144	179
الدار البيضاء	100	132	149

ومست مظاهر الغلاء المواد الاستراتيجية بالنسبة لتغذية السكان، بحيث نجد النسب تتراوح ما بين 22 % و 125 % وهي نسب

7 krier (Yves), inquiétudes marocaines, Marceille-Matin, 21-9-1937.

8 Baron ®, Matiheu (j), quelques budgets des travailleurs indigènes, Bulletin économique du Maroc, n° 17, V : IV juillet 1937, p 213.

9 Les indices des prix au Maroc, les travaux Nord Africains, 2 juillet 1938.

تبين بجلاء الحالة الغذائية التي كانت عليها الشرائح الفقيرة من المجتمع. والمعطيات الآتية تقرب الصورة عن هذا الوضع¹⁰.

المنتوج	1 يونيو 1936	18 يناير 1937	نسبة الزيادة %
الشعير	37	81	118
السكر	190	232	22
القهوة	330	570	72
الصابون	160	360	125
البطاطس	29	60	106

وتراوحت نسب انهيار القدرة الشرائية، في صفوف الموظفين والعمال والتجار الصغار، ما بين 10 % و 40 %. أما المغاربة الذين لم يكونوا لا ملاكين ولا تجارا ولا حتى عمالا مؤهلين، فلم يعد الحد الأدنى للأجور، والمحدد في أربعة فرنكات في يونيو 1936، كافيا للاستجابة لأبسط شروط التغذية¹¹. فلم تعد الأجور تواكب ما عرفته الأسعار من غلاء، لذلك ظلت الأجور اليومية شبه ثابتة ولم تعرف إلا زيادات طفيفة كما يبين هذا الجدول :¹²

التخصص	فاتح يونيو	31 دجنبر	نسبة الزيادة
بناء	15-10	15-10	0 %
جباص	15	17	2,80
ميكانيكي	10-6	20-15	11,87
حداد	15	20-10	33-0 %
نجار	15-10	20-12	28 %
عامل زراعي	42-25	42-33	1,25 %

ونتيجة الخصائص الشديدة في الأقوات، اضطر سكان البوادي إلى البحث عن مصادر أخرى لسد الرمق. وتمثلت هذه المصادر خاصة في بعض الثمار البرية وفي بعض النباتات والجذور، كثمار الدوم والبلوط

¹⁰ Situation économique de la zone française du Maroc à la date du 31 janvier 1937, direction des affaires économiques, Rabat, Annexe n° 3

¹¹ Ibid, p.76.

¹² Idid, Annexe n° 7.

وثمار الخروب والسدر كتنزغة والنديق إضافة إلى الجراد والحلزون... أما جذور إيرنى وكثارة فكانت تغسل وتجفف ثم تطبخ بالبخار ويتم تحويلها إلى دقيق. إلا أن الكثير من هذه المواد كانت لها عواقب صحية خطيرة¹³.

أشكال التدخل :

لم تغير الجبهة الشعبية من واقع الأمور شيئاً. فقد ظل المقيم العام الجنرال نوكيس (سنتبر 1936 يونيو 1943) وفيما لأسس الاستعمار العسكري. وظل النظام المطبق على المغاربة نظام عنف ومجاعة وبؤس¹⁴.

وهكذا ارتكزت تدخلات سلطات الحماية على هامش أمني محض. فلا يمكن للسلم أن يتحقق في المغرب إلا بالقضاء على الجوع. فالمجاعة في هذا البلد يمكن أن تقضي، في أي لحظة، على الهدوء¹⁵. ويمكن أن نحدد أشكال تدخل سلطات الحماية في عدة نقط نذكر منها على سبيل المثال :

- أصدرت الإقامة العامة دورية توسع بموجبها هامش السلفات العينية لخيريف 1937. وهكذا وزعت شركات الاحتياط الأهلي ما مقداره إثني عشر مليون فرنك، إضافة إلى دعم من بنك المغرب قدر بحوالي ستة مليون فرنك للبوادي ومليون واحد للمدن، وجه نصفه للحرفيين. كما خصص غلاف مالي لإقامة أوراش الأشغال لامتنصاص جزء من اليد العاملة المعطلة، وهي أوراش ركزت على شق المسالك وعلى استصلاح الأراضي وتدبير الشأن المائي وخاصة بالوحدات والجنوب عموماً¹⁶.

- وللتخفيف من مظاهر المجاعة، وضع برنامج استعجالي هدف إلى توفير الغذاء لحوالي 1,5 مليون نسمة. وتم توزيع الحبوب

Dr.Gaut et Sicault, Aalimentation indigène au Maroc, Imprimerie Alençonnaises, p.84.

13

Nocole (L), quelques faits sur de révoltes, travail, 8-1-1938.

14

Farage (yves), op.cit.

15

Mesures prises..., op.cit., p. 4-5

16

المخصصة تحت إشراف ضباط الشؤون الأهلية والمراقبين المدنيين إضافة إلى باقي السلطات المخزنية. وعينت لهذا الغرض مراكز محددة. وكان أرباب الأسر يتوجهون إليها مرة في الأسبوع، على أساس أن يكون هذا التوزيع لصالح السكان غير القادرين على العمل كالنساء والأطفال والشيوخ¹⁷

- وبالموازاة مع هذا التوجه، وللحفاظ على ما تبقى من احتياطات، منع تصدير الحبوب، كما سعت الدوائر الحاكمة إلى نشر عادة استهلاك الأرز في أوساط المتضررين. وتوفير وسائل المواصلات الضرورية لضمان توزيع الحبوب في ظروف حسنة. وفي الوقت نفسه تم الالتجاء إلى استيراد حوالي 400.000 قنطار من القمح و800.000 قنطار من الشعير و220.000 قنطار من الذرة¹⁸. ومكنت الكميات الموزعة من الحبوب من توسيع ملحوظ في مساحة الأراضي المزروعة مقارنة مع سنة 1937، بحيث ارتفعت في تافيلالت من 5000 هكتار إلى 25.000 هـ، وبجهة وارزازات ارتفعت من 9000 إلى 120.000 هـ¹⁹.

- وإلى غاية شهر يونيو، تحددت الحاجيات المالية لمواجهة الكارثة في 350.000 فرنك في اليوم لمدة خمسة عشر شهرا. وللتخفيف من ذلك، وجه نداء بالاككتاب في أوساط عدة هيئات ومؤسسات كالفدرالية المغربية للموظفين، وفي صفوف المصالح العمومية كفدرالية البريد والتعليم واتحاد السككيين والمكتب الشريف للفوسفات²⁰. وظهرت أولى أوراق الاككتاب على يد المجموعات التعاونية للتجارة والصناعة. إلا أن مسألة الوساطة في التجميع والتوزيع طرحت ضرورة التعاون مع السلطة، خاصة وأن هذه الأخيرة كانت لها وجهة نظرها وشروطها²¹. فالمجاعة كانت تهدد المغرب برمته، وهذا الأمر أحدث قلقا كبيرا لدى الحكومة الفرنسية، فكونت لجنة للبحث أسندت رئاستها للمقيم العام السابق، " تيودور ستيفغ" (أكتوبر 1925 يناير 1929). إلا أن هذا الأخير

¹⁸ Condroyer (Emile), la lute contre la famine, le journal, 28-12-1938

¹⁹ Ibid

²⁰ Nossek, la famine, feuille d'anis, 27-4-1937

²¹ Bertalot (Jean-E) la leçon d'une famine, journal de Genève, 24-5-1937

اكتفى في تصريح له بأن الوضع خطير بالمغرب، وبأن على المتربول التدخل لانقاذ الأهالي. أما مهمته فمحددة في إعادة البحث في أهمية هذا التدخل وكذلك طبيعته والشكل الذي يجب أن يتخذه²².

- وللد من انتشار وباء التيفوس، عملت المصالح الصحية على اعتماد برنامج تلقيحي للمناطق المتضررة أوالمهددة. فخلال شهر يناير تم تلقيح 4.300 شخصا بمنطقة القلعة، و4.500 ن بفاس. وخلال شهري فبراير ومارس تم تلقيح 137.000 ن بالدار البيضاء و40.000 ن في بعض المراكز الجنوبية إضافة إلى حوالي 11.000 تلقيحا بزناطة وفضالة.... واعتبرت هذه التلقيحات بأنها الأكثر جماعية منذ الحرب العالمية الأولى²³.

- ولإيقاف الزحف البشري المهاجر من الجنوب نحوالشمال، عينت عدة مراكز لتوقيف موجات المهاجرين. وتم تعيين ثلاثة خطوط لهذا الغرض²⁴.

خط أول : المنابهة - إغرم - ورزوات - زاكورة - الريش.

خط ثاني : إيمينتانوت - تاونات- أيت ويرير - ميدلت - ميسور.

خط ثالث : أزموور - صخور الرحامنة - واد زم - وجدة.

إلا أن كل هذه الحلول لم تكن ناجعة، لأن المجاعة لم تكن نتيجة صرفة للتقلبات الطبيعية بقدر ما كانت تعبيرا عن ظاهرة البؤس العام الذي عرفه المغرب.

فمنذ سنة 1937، دخل المغرب بشكل نهائي في مرحلة عدم التوازن القروي، فأصبحت اليد العاملة متوفرة بكثرة بما لم يتلاءم والاستثمار الصناعي²⁵. وكان من نتائج هجرة الجوع اتساع أحزمة الفقر قرب المدن والمراكز المنجمية، تنتظر في طوابير طويلة نصيبها من الخبز والحساء الشعبي. وتقطن بيوتات من القش والقصدير، بلغت سومة

²² Gazette, la famine menace le Maroc, le temps, 24-5-1937.

²³ Mesures prises..., op.cit, p.8.

²⁴ Ibid, p.7.8.

²⁵ Gallissot (René), op.cit, p.157.

كراء حجرة منها بمساحة مترين أو ثلاثة أمتار مربعة ما بين خمسة واثنى عشرة فرنك للشهر، وتكونت الأحياء الخاصة بالدعارة²⁶.

ورغم ظروف الجفاف، لم يتوان المعمرون لحظة في احتكار ما تبقى من مياه مما أدى إلى اصطدامات دموية كما هو الحال بالنسبة لوائي إيماور ناحية مراكش، وكما ظهر بشكل صارخ في حادثة بوفكران. كما عرفت مدينة مراكش حركة احتجاج واسعة يوم 24 شتنبر 1937، بحيث تظاهر بها أكثر من خمسة آلاف من البائسين الجائعين العراء... هتفوا بسقوط نظام الحماية الذي كان سببا رئيسا في شقائهم... ورغم سياسة الاعتقالات، استأنفت المظاهرات يوم 26 شتنبر 1937²⁷. واستنكر الوطنيون الحوادث الدامية المكناسية وإلقاء القبض على الجماعات من أهل البادية والحوادث المراكشية. فليس من شأن كل ذلك إلا أن يرفع الاستياء المغربي الناشئ عن الجوع والظلم وخنق الحريات²⁸.

: خاتمة

إن عنصر المفاجأة الذي قالت به إدارة الحماية كان عنصرا غير مبرر. أما الراغبون في الدعم فلم يعرفوا لا كيف ولا لمن. إلا أن السؤال الذي كان مطروحا هو ألم يكن في الإمكان الاستفادة مما سلف من مجاعات حتى في عهد الحماية؟ أفلم يكن المغرب المحتل يستحق أن تخنفي من أرضه المجاعة؟ فبالنسبة للفرنسيين لم تكن الحرب دائما لعبة، فالحرب تتم كذلك من أجل البقاء، يحدث القتل من أجل لقمة العيش. فللاستعمار أخطاؤه، وحتى جرائمه، إلا أنه أمام هذه المجاعة وغيرها من المجاعات لم يظهر ما كان يدعيه من عظمة²⁹. أما بالنسبة للشرائح الاجتماعية المتضررة، فتحملت الجوع والحرمان والعنف، ولم تكن ترى في فرنسا سوى "أسلحتها وجيوشها واثرائها والأسوار البيضاء لقصورها والقضبان

²⁶ Manier (Stéphane), Un peuple misérable, Ce soir, 8-12-1937.

²⁷ الفاسي(علال)، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، مطبعة النجاح الجديد، الدار البيضاء 1993، ص. 248.

²⁸ الأطلس عدد 33، الخميس 30 شتنبر 1937، ص. 2.

²⁹ Dorgès (Roland), le soleil qui tue, Intransigeant, 18-05-1937.

السوداء لسجونها. وعندما تسترق السمع لا تسمع إلا أصوات الخوف والعنف، فهي لا تتكلم إلا بصوت التهديد لأنها تفتقر إلى صوت الإنسانية³⁰.

³⁰ Magdeleine (paz), Ce qu'une femme marocaine dirait si..., le populaire, 17-1-1937.